بسم الله الرحمن الرحيم

التعبير عن الذات
فى شعر المتنبى

تحليل ودراسة

دكتور حسانين سرحان أبو سيف

— أ —

أحل المتنبى نفسه المكانة التى أرادها لنفسه فى حياته وبعد مماته ؛ فما حَظِىَ شاعر من شعراء العربية بمثل ما حظى به من اهتمام النقاد والكتاب قديما وحديثا . وما ذلك إلا لأنه شاعر عظيم ، بل إنه شاعر العربية غير منازع ، وهو — كما قيل عنه بحق — ملأ الدنيا وشغل الناس .

فما اختلف الناس حول رجل اختلافهم حوله ، فى نسبه وتدينه وأخلاقه ، وغير ذلك من صفاته . كما لم يختلف النقاد حول شاعر اختلافهم حول شاعريته وتقدير شعره ؛ فهم بين متعصب له ، يرى عيوبه محاسن ، وأن ما وقع فيه من سقطات شعرية ، قد وقع فيها كثير من فحول الشعراء قبله ، دون أن ينال ما وقعوا فيه من مكانتهم الشعرية ، ومن هؤلاء : صديقه ابن جنى ، وأبو العلاء المعرى ، ومتعصب عليه ، يرى أن لا حسنة له فيما أجاد فيه ، وأن كثيرا من معانيه مأخوذ عن غيره ، ومن هؤلاء : الصاحب بن عباد ، صاحب « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى »

والعميدى ، صاحب « الإبانة عن سرقات المتنبى » ومعتدل فى الحكم له أو عليه ، وأعنى به القاضى الجرجانى ، صاحب « الوساطة » .

ويشير الجرجانى إلى هذا حين قال : « وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألحقتنى الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بينى وبينهم ، فى أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فئتين : بين مطنب فى تقريظه ، منقطع إليه بجملته ، منحط فى هواه بلسانه وقلبه ، يلتقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فإن عثر على بيت مختل النظام ، أو نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر ، وعائب يروم إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه إياها أدبه ، فهو يجتهد فى إخفاء فضائله ، وإظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، وإذاعة غفلاته »[١] .

ومن ثم ألفت الكتب ، وسطرت المقالات قديما وحديثا حول شاعريه المتنبى ، وهى لا تخرج عن هذه الأُطُر الثلاثة التى أشرت إليها ، والتى تقتضيها القسمة العقلية : القدح ، أو المدح ، أو الإعتدال والإنصاف[٢] .

---

(١) القاضى الجرجانى ، الوساطة ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى - ط عيسى الحلبى ص ٣ .

(٢) انظر فى الدفاع عنه : أحمد عبد الصمد ، المتنبى بين تهمة السرقة وشرف النبوغ ، مقال ، المجلة العربية ، نوفمبر ١٩٩٢م ، ص٨٦ .

- د. إبراهيم عوضين ، لا .. لم يكن المتنبى مصابا بالبارانويا ، مقال ، مجلة الفيصل ، فبراير ١٩٩٣م ، ص١٢٤ وما بعدها .

- د. ماهر حسن فهمى ، أنا الصادح المحكى والآخر الصدى ، مقال ، مجلة القاهرة ، سبتمبر ١٩٩٣م ، ص٢٢٩ .

ومن جانب آخر ، لم يحظ ديوان شعر بمثل ما حظى به ديوان المتنبى إذ عنى به العلماء ، وشرحوه شروحا كثيرة ، وإن لم تكن شروحا بالمعنى المفهوم ؛ بل كان منها ما عنى بإبراز جانب من جوانب شعره ، ككتاب « الإبانه عن سرقات المتنبى ، وكتاب « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » ، وكتاب « الوساطة » الذى أراد به مؤلفه أن يكون منصفا مع المتنبى ويلحقه بطبقة من الشعراء ، هو جدير بها .

وجاءت فى الصبح المنبى ، وديوان المتنبى بشرح البرقوقى إشارات معرفة لشرح الديوان كله أو بعضه مما نحن فى غنى عن ذكره هنا . وأكثر من ذلك ؛ يقول الأستاذ عباس حسن : « لقد أطلع بعض الباحثين على أكثر من أربعين شرحا له بين مطولات ومختصرات »[١] .

والخلاصة أنه « . . . . لم يسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا فى الإسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الأدباء فى نظم ونثر أكثر من شعر المتنبى »[٢] وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على ما لهذا الديوان من قيمة فنية ، ودلالة قوية على شخصية صاحبه ، وظروف عصره السياسية والأجتماعية ، وغير ذلك مما يستنبط من دراسة النص الأدبى .

وإذا كان المتنبى - كما قيل - ملأ الدنيا وشغل الناس ، وإذا كان لم يملك فى حياته الممالك ، ولم يؤثل لنفسه مجدا من الغنى والجاه ؛ فلقد ملك العقول ، وملأ الآذان ، وترك ذكرا يتوالى بتوالى الأزمان .

---

(١) الأستاذ عباس حسن ، المتنبى وشوقى ، ط ٣ ، دار المعارف ١٩٧٦م ، ص١٧ ، عن تاريخ ابن خلكان .

(٢) يوسف البديعى ، الصبح المنبى ، تح مصطفى السقا وآخرين ، ط٢ دار المعارف ١٩٧٧م ، ص٢٦٩ ، وانظر الأستاذ عباس حسن ، المرجع السابق ص١٧ .

ولله دره ، إذ قال[١] :

ولا تحسبن المجد زقاوقينة   فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى   لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركُكَ فى الدنيا دويا كأنما   تداول سمع المرء أنمله العشر

نعم . أقام المتنبى الدنيا منذ أن عزف منظوماته الشعرية ، ولم يقعدها لما يقرب من أحد عشر قرنا من الزمان ، ورحل عن هذه الدنيا تاركا فى آذان الناس دويا لا يذهب بذهاب الأيام .

ونحاول فى هذه السطور أن نضع أيدينا - من خلال قراءة شعر المتنبى - على جانب من جوانب شخصيته ، أو على زاوية من عالمه النفس ، وهى إحساسه بذاته فى معظم أشعاره إلى الدرجة التى قد يشتغل بها عن الغرض الذى نظم من أجله قصيده .

حول التعبير عن الذات

الشاعر كالطائر الحر الطليق ، ينتقل من أيكه إلى أيكة ، ومن فن إلى فن ، ويضرب بجناحيه فى آفاق الكون الفسيح ، مالئا هذا الكون بأغاريده وأناشيده صباح مساء . ولذا يصلح كل ما تقع عليه عين الشاعر لأن يكون موضوعا شعريا له ، سواء أكان هذا الموضوع متصلا بحياة الشاعر الخاصة ، أم متصلا بحياة النوع الإنسانى كله ، أم متصلا بمظاهر الكون المختلفة . فالشاعر الحق يقلب عينيه فى صفحة الوجود كله ، ويترجم عن ذاته ، سواء أكان موضوعه الشعرى خاصا أم عاما . وما يعنينا منه أن يكون شعره نابعا من إحساس صادق ، وانفعال حقيقى بالموقف الشعرى .

---

(١) ديوان المتنبى ، شرح البرقوق ، دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨٠م ٢/٢٥٣ .

وشاعر كالمتنبى ولد والحياة من حوله مليئة بالفوضى السياسية والإضطراب الاجتماعى ، وتنقل بين الحضر والبادية ، وعاش فى دمشق وحلب ورملة والكوفة ، وزار البلاد الفارسية ومشاهدها الرائعة . فهل شغلت هذه الحياة الممتدة من فارس إلى مصر ، وما فيها من مظاهر طبيعية وظواهر أجتماعية ، وحروب ومنازعات سياسية فكر المتنبى ، أم كان مشتغلا بذاته ومطامحها عن كل ما يجرى فى الحياة من حوله ؛ فامتلأ بها شعره ؟ وما قيمة هذا الشعر ؟

يجيبنا عن هذا التساؤل الدكتور عبد العزيز الدسوقى ، فيقول « إن هذا الشعر لا يمكن أن يكون من شعر المدح أو الذم الذى يصطنعه الشعراء أستجلابا لرفد الملوك والأمراء لأن شخصية المتنبى الطاغية المشعة الجذابة . . . حولت هذا الشعر إلى شىء آخر ، يمكن أن نسميه أفكار رجل يشتغل بالحياة العامة ويعبر عن معاناته السياسية وأفكاره فى تغيير الحياة من حوله . ولا شك أن المتنبى كان متأثرا بروح العصر الذى يعيش فيه . وكان له تصور فكرى كامل لما . يجب أن تكون عليه الحياة العربية . وكان له تصور خاص فى بعث الدولة العربية ، وإعادة أمجاد الإمبراطورية الإسلامية . . . ولو دققنا النظر فى طبيعة هذا الشعر الذى كان يمدح به سيف الدولة ، أو كافورا ، أو ابن العميد ، أو عضد الدولة ، لوجدنا شخصية هذا الداعية السياسى والمفكر القومى والشاعر العبقرى واضحة تزحم هذه القصائد ، لقد كان يمدح نفسه ويتغنى أشواق روحه فى بداية هذه القصائد وفى خواتيمها . وأحيانا كانت تشغله ذاته عن شخصية الممدوح »[1] .

---

(١) د. عبد العزيز الدسوقى ، فى عالم المتنبى ، مقال ، الثقافة عدد ٤٤ - مايو ١٩٧٧م ، ص٥٥ .

وربما نلحظ ذلك من خلال أبيات ينكر فيها المتنبى على العرب سكوتهم على الظلم وفساد الحكم ، وتركهم العجم يصرفون أمور الدولة العربية ، مع ما فيهم من خصائص ، ومع أنهم خلو من كل ما يؤهل للشرف والسيادة وما مثل العرب فى ذلك إلا الغنم التى ترعاها العبيد .

وذلك فى نحو قوله[١] :

وإنما النـــاس بالملـــوك ومـــا تفلح عُرْب ملوكها عجـــم
لا أدب عندهـم ولا حسب ولا عهـــود لهم ولا ذمم
بكـــل أرض وطـــئتها أمم ترعـى بعبـد كـأنهم غنـم

وفى نحو قوله[٢] :

أذم إلى هـذا الزمـان أهليـه فأعلمهم فدم وأحزمهم وغـد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

فالشاعر مكلوم لما أصاب الناس فى زمانه من ذل واستكانة للحاكم الدخيل ، وشعره هذا يدل على أنه سياسى ثائر مهتم بقضايا أمته ، غير أنك تلمح أنه عبر عن ذاته من خلال حديثه هذا ؛ إذ يشير إلى عروبته وأدبه وحسبه ووفائه وعلمه وحزمه وغير ذلك .

وهكذا يتضح أن شاعرنا عبر من خلال إحساسه بذاته وشعوره بنفسه عن أحزابه وهمومه لما أصاب مجتمعه العربى من هوان ، كما عبر عن أغتباطه وارتياحه لما يحققه أى أمير عربى من أنتصار على أعداء أمته ، وكأنه بذلك يرى نفسه رمزا لأمته بعزتها وكرامتها .

وذهب بعض الباحثين إلى أن هذا التراث الذى وصل إلينا من المتنبى

---

(١) ديوان المتنبى ، سبق ص

(٢) ديوان المتنبى ، سبق ص

« كله من الشعر الذاتى ، قليل النفع ، ضئيل القيمة »[١] ، غير أن هذا الحكم فيه تجن على المتنبى ؛ لأن كل من يقرأ المتنبى يرى ذاته فيما يقرأ ، وكأن هذا الشعر ترانيم مرجعة ، لا يسطيع القارىء أن يخرجها من نفسه ويصورها كما أخرجها وصورها المتنبى ، كما أن من يقرأ المتنبى يرى أن شعره يعكس موقفه من قضايا أمته . ونعتقد أن فى رأى الدكتور الدسوقى يرد هذا الرأى ؛ لأن ذاتيه المتنبى ، لم تكن ذاتيه منطوية ، بعيدة عن المجتمع وقضاياه على نحوما نعرف فى الشعر الرومانسى ، وإنما كان إحساسه بذاته نابعا من امتلائه بمشاعر ذاتيه ممتزجة ومتفاعلة مع أمته وقضايا مجتمعه . وماذا يراد من الشعر إلا أن يكون وثيقة تستنبط منها كل القيم الفكرية والجمالية ، سواء أكانت هذه القيم من عالم السياسة ، أم من عالم الإجتماع ، أم من طبيعة النفس البشرية[٢] .

- ب -

المحاور التى دار فيها حديث المتنبى عن نفسه

يقول المازنى بعد أن عرض أبياتا من قصيدة المتنبى فى عتاب سيف الدولة : « وما كان ليصدر عنه أى هذا الشعر - لولا شعوره بنفسه وبحقه ، وأنه فوق أن يعد أحد الأذيال . . ومن الإطالة فى غير محل لذلك أن نفيض فى بيان شعور المتنبى بنفسه ومعرفته لقدره ، وطموحه ، وبروز شخصيته ، وكفى دليلا على ذلك قوله :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما[٣]

---

(١) الأستاذ عباس حسن ، المتنبى وشوقى ، سبق ، ص ٢٩ .

(٢) د. عبد العزيز الدسوقى ، الثقافة ، المقال السابق ، ص٥٤ بتصرف يسير .

(٣) إبراهيم عبد القادر المازنى ، حصاد الهشيم ط الشعب ، ص ١٥٠ .

وإذا كان المتنبى قد سيطر عليه إحساس بذاته على هذا النحو ؛ فإننا نلمح فى شعره بعض المحاور التى دار فيها حديثه عن نفسه واعتداده بذاته ، وتتصل بجوانب حياته المختلفة ، ويمكن أن تتبلور فى نسبه ، وفقره ، ونبوغه ، وعروبته ، وظروف عصره ، وطموحاته ، وأعتزازه بنفسه وشجاعته ، وخبرته وتجربته فى الحياة ، وشكوى الدهر والحساد . . . وغير ذلك مما نعرض له إن شاء الله .

فبعض هذه الأمور كان سيفا مصلتا عليه ، يقصد مضجعه فى منامه ، ويطارده فى نهاره ، كما كانت دافعا قويا لأن يدفع عن نفسه ما يسوءه أو يحزنه ، وبعضها كان مما يزهو به ويفاخر ، وبعضها كان مما يطمح إليه ويضعه نصب عينيه . وكل هذه الأمور كان لها أثرها فى أعتداد المتنبى بذاته وشعوره بنفسه .

١ - الكلام فى نسبه

وهو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعْفى الكوفى الملقب بأبى الطيب[١] ، أو هو أحمد ين الحسين ين مرة بن عبد الجبار الجُعْفى الكندى الكوفى . أو أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجُعْفى الكندى الكوفى[٢] . ويقول بعض المؤلفين : أحمد بن محمد[٣] .

وجاءت روايات وأشعار تفيد أن المتنبى كان حريصا على إخفاء نسبه ، ومنها ما رواه الخطيب عن على بن المحّسن التنوخى عن أبيه ، قال : « سألت لمتنبى عن نسبه فما أعترف لى به ، وقال : أنا رجل أخبط القبائل وأطوى

---

(١) يوسف البديعى ، الصبح المنبى ، سبق ، ص ٢٠ .

(٢) د. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، ط٣ دار المعارف ١٩٦٨م ص٢٩ .

(٣) السابق ، ص ٣٢ .

البوادى وحدى ، ومتى إنتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التى أنتسب إليها ، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى »[١] .

وفى الصبح المنبى أن مولد المتنبى كان بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة ، وكان شاعرا عظيما مشهورا مذكورا محظوظا من الملوك والكبراء . . وكان يكتم نسبه ؛ فسئل عن ذلك ؛ فقال : « إنى نزلت دائما على قبائل العرب ، وأحب ألا يعرفونى خيفه أن يكون لهم فى قومى ترة »[٢] .

وجاء فى شعر المتنبى ما يدل على أنه كان يخفى نسبه مفاخرا بنفسه وقدرته على طعن الخصوم الذين يطالبونه بذلك . ففى القصيدة التى مدح بها أبا العشائر بن حمدان ، والتى أولها[٣] .

لاتحسبوا ربعكم ولا طلله أول ميْت فراقكم قتله

يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث والنّجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله

ففى هذين البيتين تلحظ أن نسب المتنبى كان هدفا لأعدائه وحساده ، النافسين عليه مكانته الشعرية وحظوته عند الأمراء ، كما تلحظ سكوته عن ذكر آبائه وأجداده ، ومراوغته فى الإجابة عن ذلك .

ونلحظ مثل هذه المراوغة فى التصريح بنسبة ، وثورته على خصمه فى قوله فى صباه ، وقد بلّغ عن قوم كلاما[٤] :

---

(١) السابق ، ص ٣٠ .

(٢) يوسف البديعى ، الصبح المنبى ، ص ٢٠ بتصرف يسير .

(٣) ديوان المتنبى ، سبق ، ٣٨١/٣ .

(٤) السابق ٣٦٤/١ .

أنا عين المسوّد الجحجاح هيجتنى كلابكم بالنباح[١]
أيكون الهجان غير هجان أم يكون الصراح غير صراح
جهلونى وإن عمرت قليلا نسبتنى لهم رؤوس الرماح

فنلحظ أتصال هذه الأبيات بقضية نسبه ، كما نلحظ تأكيده على أنه ينتمى إلى أصل كريم ، ونسب صريح ، ومن شك فى هذا فإنما يشك عن جهل بعراقة نسبه ، غير أن هنا حقيقة واضحة ، وهى أن الشاعر كان حريصا على عدم التصريح بحقيقة هذا النسب ، بل يتحين الفرصة لأن يعالن اللامزين ؛ بل الناس جميعا بالحقيقة ، ولو كان السبيل إلى ذلك أرتكاب المخاطر وخوض الحروب .

وفيما يتصل بنسب المتنبى من جهة أمه فكان أكثر خفاء ، إذ لم نعرف شيئا عن أمه ، ولا من تكون ؟ وكل ما نعرفه أن جدة المتنبى لأمه كانت همدانية صحيحة النسب لا شك فيها ، وكانت منَ صلحاء النساء الكوفيات[٢] .

وحرص المتنبى على كتمان نسبه – على نحو ما لحظناه فى هذه الأبيات ، وما جاء فى الروايات السابقة – جعل الباحثين يسلكون – فى التعليل لذلك – أتجاهين متناقضين . الأول . أن الرجل كان خامل النسب ، من أسرة متواضعة ، وليس أدل على ذلك – فى نظرهم – من أختلاف الروايات فى نسبه ؛ بل فى الجد الأول له ، على الرغم مما كان يعرف به العرب من دقة الرواية ، وحفظ الأنساب والأخبار . وقوى ذلك عندهم حرص المتنبى نفسه على إخفاء نسبه ؛ إذ ما ذكر فى شعر أباه أو أحدا من أجداده[٣] .

---

(١) الجحجاح : السيد السمح ، وقيل : الكريم ، لسان العرب ، مادة : جحجح .
(٢) د. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبى الطيب ، سبق ص ٢٣ .
(٣) انظر المرجع السابق ، ص ٣٣ .

وذهب أصحاب هذا الأتجاه إلى أن إحساس المتنبى بتواضع نسبه كان يلاحقه فى كل حالاته ، ومن هنا كان إعراضه عن أنْ ينتسب إلى ؛ بائه وأجداده ، وإنما « كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح ، وإلى الحرب والبأس على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذى سماه المؤرخون الحسين ، ونسبوه إلى جعفى من عرب الجنوب »[١] ، كما كان هذا الإحساس يلح عليه فى أماديحه وأهاجيه ورثائه ؛ إذ كان « يخاطب الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق . . رفعا لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدريجا لها إلى مماثلة الملوك »[٢] .

وذهب الأستاذ محمود شاكر إلى أفترض أن المتنبى كان من الأشراف العلويين ، وبنى أفتراضه هذا على عدة أدلة :

منها : أن المتنبى أخو العلويين من الرضاعة . ونقل عن ابن العديم « أن المتنبى أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » وآل عبيد الله هم بنو « عبيد الله بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب »[٣] .

ومنها : أنه كانت للعلويين مدارس خاصة بهم تقوم أصولها فى التعليم على أصل اعتقادهم[٤] .

ومنها : اختلاف المتنبى إلى كتاب فيه أولاد اشراف الكوفة ؛ فكان يتعلم

---

(١) د. طه حسين ، مع المتنى ، ط ١٣ دار المعارف ١٩٨٦ م ص ١٢ .

(٢) النيسابورى ، أبو الطيب ، ما له وما عليه ، تح محمد محيى الدين ، ط حجازى ص ١١١ بتصرف ، والثعالبى ، يتيمة الدهر ، تح د. مفيد محمد قميحة ، ط بيروت ١٩٨٣م ٢٣٧/١ .

(٣) الأستاذ محمود شاكر ، المتنبى ، ط المدنى ١٩٨٧م ، ص١٥٣ ، ١٦٨ .

(٤) السابق ص ١٦٧ بتصرف .

دروس (العلوية) شعرا ولغة وإعرابا فنشأ فى خير حاضرة .[١] ومعنى ذلك أنه لا يدخل هذه الكتاتيب والمدارس إلا أنباء العلويين . . ودخول المتنبى بيت أبنائهم يفهم منه أن بين جدة المتنبة وبين العلويين سببا موصولا قويا .[٢] .

ومنها : ادعاؤه العلوية . فقد ذكر الخطيب البغدادى أن أبا الطيب « لما خرج إلى كلب ، وأقام فيهم ، ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى »[٣] .

ويقوى هذا الافتراض – من وجهة نظرى – بالإضافة إلى ما سبق دراسة قام بها أديب عراقى يدعى عبد الغنى الملاح ، بعنوان « المتنبى يسترد أباه » أثبت فيها نسبته للأشراف العلويين[٤] .

غير أن المتنبة كان يخفى نسبه ؛ خوفا من « عيون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هضموه وظلموه ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضا »[٥] .

وهل كان المتنبى يخفى نسبه ؟ نعم . ولكن ذلك لم يكن لخمول نسبه كما ذهب بعض الباحثين ، ولكنه كان شريف النسب ، نشأ فى قوم حالوا بينه وبين التصريح بذلك ، فعاش ينتظر اليوم الذى تمكنه فيه الظروف من أن يعالن شانئيه والناس جميعا بذلك ، ويحصل على حق يكتمه فة نفسه ، ويغالبه على الظهور سنين طويلة . وطالما أشار المتنبى إلى أنه يشتاق ذلك

---

(١) السابق ص ١٥٢، ١٦٧ بتصرف .

(٢) السابق ص ١٦٨ بتصرف .

(٣) السابق ص ١٦٩ ، ومقدمة الديوان ٢٧/١ .

(٤) أشارت إليها مجلة الثقافة ع ٣١ – أبريل ١٩٧٦م ص ١١١ .

(٥) الأستاذ شاكر ، السابق ص ٢١٨ .

اليوم ، وأنه يعد نفسه له ، وأنه سيجهر بالحقيقة ولو كلفته أن يخوض المعارك ، ويسفك الدماء ، بل لو كلفته حياته ، وذلك فى مثل قوله[١] :

جهلونى وإن عمرت طويلا ... نسبتنى لهم رؤوس الرماح

وقوله[٢]

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهُمُ من طول ما التثموا مرد

وقوله[٣] :

تحقر عندى همتى كل مطلب ... ويقصر فى عينى المدى المتطاول

ومازلت طودًا لا تزول مناكبى ... إلى أن بدت للضيم فى زلازل

.....

يخيل لى أن البلاد مسامعى ... وأنى فيها ما تقول العواذل

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا ... تساو المحايا عنده والمقاتل

ألا ليست الحاجاتُ إلا نفوسكم ... وليس لنا إلا السيوف وسائل

غثاثةُ عيشى أن تَغَثَّ كرامتى ... وليس بغَث أن تَغَثَّ المآكل

فالقارى المتأنى يرى هنا قضية تؤرقه وتلازمه ، وهى أن له حقا مسلوبا ، كما يلحظ قوة إرادته وعزمه على استرجاعة (سأطلب حقى) ، مهما كلفه الأمر . وهو يرى أن ما فطر عليه من العزة والإباء ، والطموح إلى المعالى يحقر لديه كل مطلب من مطالب الدنيا مهما كان عظيما فى نظر الناس . إذن : ما مطلبه الحقيقى ؟ لا شىء سوى أن يكشف عن تلك الحقيقة التى تضىء نفسه ، وتمده بكثير من معانى العزه والكرامة ، مع أنه كان مغلوبا عليها . على أنه كان رابط الجأش ، صابرا على كتمانها ، ثابتا ثبوت الجبل

---

(١) ديوان المتنبى ٣٦٤/١ .

(٢) ديوان المتنبى ٩٢/٢ .

(٣) ديوان المتنبى ٢٩١/٣ .

الأشم ، حتى زلزله الظلم ، وهز كيانه ؛ فلم يجد بدا من من محاولة إظهار الحقيقة ، ومعالنة الناس بأمره ؛ إذ يقول :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا تساو المحايا عنده والمقاتل

نعم . إنه يريد أمرا غير ما يريده الناس جميعا ، ومجدا من نوع خاص ، خاف عن طلاب المعالى ، وفوق طلابهم ، يريد أمرا يتصل بكرامته وشرفه . من أجل هذا تهون فى سبيله الحياة ، إذ الموت والحياة بعد الحصول عليه سواء .

ولهذا وغيره مما أشار إليه المتنبى فى شعره نميل إلى رأى القائلين بأنه كان علويا شريف النسب ، عاش تصارعه هذه الحقيقة على الظهور ويصارعها على الكتمان .

إذن ، لم يكن اعتداد المتنبى بذاته نتيجة عكسية لإحساسه بنقص يلحقه من جهة نسبه ؛ يريد أن يكمله بتعاليه وتعاظمه وافتخاره على من يحيطون به من العلماء والشعراء فى عصره ، وإنما كان اعتدادا نابعا من إحساسه بالانتماء إلى أصل عريق ونسب شريف ؛ يطاول به نجوم السماء ، فى مثل قوله : (وأنى على ظهر السماكين راجل) فى القصيدة التى منها الأبيات السابقة .

وهناك أمر آخر زاد فى إحساس المتنبى بذاته ، وهو انتماؤه إلى أصل عربى . ولم يختلف المؤرخون فى عروبته اختلافهم فى نسبه ؛ إذ فى شعره ما يدل على عصبية يمانية . . . قال : على لسان بعض التنوحين يفضل اليمن على خندف[1] :

---

(١) ديوان المتنبى ٣٢١/٤ .

قضاعـــة تعلـــم أنى الفتـــى الذى ادخرت لصروف الزمان
ومجدى يـدل بنـى خنـدف على أن كل كـــــريم يمان

وها هو ذا يفخر بعروبته وعروبة قومه فى قوله[١] :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخـرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضـ ـاد وعوذ الجانى وغوث الطريد

٢ - فقـــره

ولد المتنبى لأسرة فقيرة . ومن دلائل ذلك أن أباه - كما يقول بعض المؤرخين - كان سقاء ، يحمل الماء فى الكوفة ، وكان يعرف بعبدان السقا ، يسقى الناس ، ويقتات من السقاية هو وأسرته الصغيرة .

ونشأ المتنبى فى تلك الأسرة المجهدة ، يحتضنه الفقر ، ويحوطه الحرمان وزاد من إحساسه بالفقر والحرمان أنه كان يتعلم فى كتاب يلتقى فيه مع من هم فى مثل سنه من أبناء الأشراف العلويين ، وهم بلا شك يحيون حياة تختلف عن حياته ، الأمر الذى انعكس أثره على طفولة المتنبى ، أو قل ترك فيها أثرا لا يستهان به .

وبين الإحساس بالفقر والحرمان ، والأمل فى الغنى والثراء عاش المتنبى حياة ، هى الشقاء كله . يقول إبراهيم عبد القادر المازنى : « وقد تعلم أنه قل من بين الإحساسات البغيضة - كما يقول نيقولاى - ما لا يكون مختلطا بغيره أو نقيضه »[٢] .

ولم يستطيع المتنبى أن يتخلص من وطأة الفقر على نفسه فى شعره ؛ إذ

---

(١) ديوان المتنبى ٤٦/٢

(٢) إبراهيم عبد القادر المازنى ، حصاد الهشيم ، سبق ، ص ١٤٠ .

نراه يربط بين فقره وبين ما يحس به من آلام مرة ينوء بحملها الدهر كله ، كما نرى ثورة نفسية على ذلك الواقع الذى تأباه ولا تسيغه نفس مثل نفس أبى الطيب . ومن ذلك قوله فى صباه[١]

إذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعدا   فقم واطلب الشىء الذى يبتر الفقرا
هما خلتان : ثروة أو منية   لعلك أن تبقى بواحدة ذكرا

فالقارىء يرى فى هذه الأبيات رجلا تؤرقه قضية الفقر ويرى ثورة نفسية للخلاص منها . وسبيل ذلك فى نظر الشاعر - أحد أمرين : الثروة أو الموت ، ويلحظ ضيق المتنبى بفقره فى قوله (يبتر الفقر) ، كما يلحظ حسمه هذه القضية وعزمه على الخلاص منها ، مع الشعور بضيقه أيضًا فى قوله هما خلتان : ثروة أو منية .

وتجد المتنبى يجتر آلامه الكثيرة ، وينعي حظه العاثر وفقره المؤلم ، ويشكو الليالى التى أتت على غناه ، وكسته ثوب الفقر ، على بعد همته وسمو مطلبه ، فى الوقت الذى حبت فيه الخاملين ، الخالين من خلق الشهامة والمروءة المال الكثير ، فى قصيدته[٢] .

ليس التعلل بالآمال من أربى   ولا القناعة بالإقلال من شيمى

ومنها يقول :

لم الليالى التى أخنت على جدتى   برقة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناسا ومحصولى على غنم   وذكر جود ومحصولى على الكلم
وربَّ مال فقيرا من مروَّته   لم يثر منه كما أثرى من العدم

وظلت قضية الفقر هذه تطارد المتنبى فى حياته ما كانت له حياة ،

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٢١٧ .

(٢) ديوان المتنبى ٤/١٥٥ .

وتسيطر كثيرا على مشاعره حين يقرص شعره ، غير أن القارىء يلحظ تأبى الشاعر على فقره ، ورفضه لواقعه ، واعتداده بذاته وشعوره بنفسه وقوته في مواجهة هذا الواقع ، إذ جعل موته مع الفقر هدفا له ، كما جعل حياته لا تساوى شيئا دون الثراء .

ومن شعره الذى أشار فيه إلى وطأة الفقر على نفسه قوله فى مدح المغيث بن بشر العجلى[1] :

فسرت نحوك لا ألوى على أحد ... أحث راحلتى : الفقر والأدبا
أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

وقوله فى هجاء كافور[2] :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أنى بما أنا باك منه محسود
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا ... أنا الغنى وأموالى المواعيد

٣ - نبوغه المبكر وثقافته

ولد المتنبى فى محلة كندة بالكوفة ٣٠٣هـ لأسرة فقيرة ، وكانت الحياة هناك تموج بالحركة العلمية والثقافية ؛ وتعهد أبوه تنشئته ؛ فأرسله إلى كتاب للأشراف العلويين ، يتعلم فيه مبادىء العلوم ؛ ففاق أقرانه ، وكانت الكوفة فى ذلك الوقت « مقر علماء اللغة العربية ، وبلاد العراق محط العلم والعلماء ، فمال المتنبى إلى تعلم اللغة العربية ، وأكب على القراءة والدرس ، وكان ذكى الفؤاد ، قوى الحافظة ، فوعى كثيرا من رسائل اللغة ومفرداتها ، وحفظ كثيرا من أشعار العرب وكلامهم ، وأحاط بغريب مفرادات اللغة إحاطة

---

(١) ديوان المتنبى ٢٤٨/١ .

(٢) ديوان المتنبى ١٤٢/٢ .

تـامـة »[١] .

ولم يكتف أبوه بهذا النوع من التعليم فسافر به إلى البادية ؛ ليخالط الأعراب ويأخذ عنهم اللغة بالمشافهة ، ويتعلم عاداتهم وطباعهم ؛ فقد ذكر أن أباه « سافر إلى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ، ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه فى المكاتب ، ويردده فى القبائل ، ومخايله نواطق الحسنى عنه ، وضوامن النجح فيه »[٢]

وهناك روايات عديدة تدل على ما كان لهذا الفتى النابه من نبوغ مبكر وثقافة واسعة باللغة العربية وعلومها ؛ حتى استطاع أن يجبه خصومه ، ويدل بثقافته فى مجلس سيف الدولة الحمدانى ، مما جعل الأخير يحكِّمه فى مسألة لغوية جرى فيها خلاف بين ابن خالويه ، وأبى الطيب اللغوى[٣] .

وذكر ابن خلكان أن أبا على الفارسى قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزيد فِعلى ؟ فأجابه على الفور : حِجلى وظربى . قال أبو على : طالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا ؛ فلم أعثر على شىء[٤] .

ورجل فى مثل سن المتنبى ، له من ذكائه ، وتوقد ذهنه ، وقوة حافظته ما بوأه مكانة علمية حسده عليها كثير من الناس ، خليق بأن يزهو بعلمه

---

(١) د. أحمد ضيف ، أبو الطيب المتنبى ، مقال ، حولية دار العلوم السنة الثانية ١٩٣٦ مج٤/١٧ ، وانظر بلاشير ، أبو الطيب المتنبى ، ترجمة د. إبراهيم الكيلانى ط٢ دار الفكر العربى للباعة ، دمشق ١٩٨٥م ، ص٣١ .

(٢) الثعالبى ، يتيمة الدهر ، تح د. مفيد محمد قميحة ، ط بيروت ١٩٨٣م ١٤١/١ .

(٣) د. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبى الطيب ، سبق ، ص ٩٦ .

(٤) د. أحمد ضيف ، المقال السابق ، المرجع والصفحة السابقة .

وثقافته ويفاخر بذلك فى كثير من مواقفه الشعرية مما نشير إليه فى مواضعه من هذا البحث .

فهو القائل[١] :

أنا الذى نظرا الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا

٤ - طموحـــاته

كانت للمتنبى طموحاته وتطلعاته إلى الملك والرئاسة منذ أن فتح عينيه على الدنيا من حوله ، وكأنه أعد لذلك إعدادا خاصا . والتاريخ « يؤكد أن الرجل أهل نفسه لذلك منذ نعومة أظفاره ، وهيأها لتسنم المناصب العالية ، إن لم يكن أعلاها ، فإذا سعى المتنبى لتحقيق ما هيىء له فهو إنسان سوى ينطلق فى الطريق المناسب »[٢]

ومما قوى هذا الجانب عند المتنبى ، أنه نظر فرأى الدولة العباسية ، الممتدة الأطراف ، قد تقطعت أوصالها ؛ فاستقلت أجزاء منها عن عاصمة الخلافة (بغداد) ، بعد أن كان الخليفة هو محور الأمور كلها . ورأى العبيد وخدم الخلفاء من الترك والعجم هم الذين يصرفون الأمور ، ويديرون سياسة الملك ، على أن ليس فيهم ما يؤهلهم للسيادة والشرف ؛ فصادفت هذه الأحوال آمالا فى نفسه ، وتطلع لأن يكون واحد من أرباب الملك والسيادة ، بعد أن حقق لها التقدم والرئاسة فى مملكة الأدب .

ورأى المتنبى أن أقصر طريق إلى غايته أن يتسلح بالشجاعة .

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٨٣ .

(٢) د. إبراهيم عوضين ، مجلة الفيصل ، العدد السابق ، المقال السابق ، ص ١٢٤ .

والبطولة فى ميدان الحرب ، ومقارعة السيوف ، ونزال الأعداء . ومن ثم نراه يتحدث عن نفسه ويعبر عن ذاته بكثير من معانى البطولة . فنلمح رجلا مزهوا بنفسه ، ثائرا على ملوك عصره ، يلوح بسيفه مهددا متوعدا ، فى قوله لأبى سعيد المجيمرى حين لامه على عدم لقاء الملوك[١] :

أبا سعيد جنب العتابا فرب رائى خطأ صوابا
فإنهم قد أكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
وإن حد الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرابا
يرفع فيما بيننا الحجابا

بل نراه يشتاق للحرب ، وَيطرب لمقارعة السيوف فى قوله [٢] :

لأحبتى أن يملأوا بالصافيات الأكوبا
وعليهم أن يبذلوا وعلى أن لا أشربا
حتى تكون الباترا ت المسمعات فأطربا

وفى قوله[٣] :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافى السبال

وفى مدح سيف الدولة ، يتحدث عن شجاعته فى خوص المعارك ، فيقول[٤] :

وأورد نفسى والمهند فى يدى موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن إذا لم يحمل القلب كفه على حالة لم يحمل الكف ساعد

---

(١) ديوان المتنبى ٢٣٣/١ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٣٤/١ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٧٩/٢ .
(٤) ديوان المتنبى ٣٩٤/١ .

وفى عتابه أيضا ؛ يقول[١] .

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ورجل يدل على أهل عصره بقوله[٢] :

إلى لعمرى قصد كل عجيبة ... كأنى عجيب فى عيون العجائب
بأى بلاد لم أجر ذؤابتى ... وأى مكان لم تطأه ركائبى

ورجل يتطلع إلى الحرب بهذه الصورة ، ويتسم بمثل هذه الشجاعة والجرأة على القتال جدير بأن تكون له تطلعاته التى تشبع هذه الروح الظامئة إلى الملك والسلطان والمجد والسيادة .

أ - على أن قارىء شعر المتنبى فى هذا الجانب يلحظ أن تطلعاته تنطلق فى اتجاهين :

الأول : تطلعاته إلى الملك والسيادة ، وهذا مطلب يضعه نصب عينيه ، ويصرح بطلبه ، ولا يدارى عزمه على الخروج على السلطان ، عربيًا كان أم أعجميًا فى سبيل الحصول عليه ، أو التصريح بطلب ذلك مباشرة كما فعل مع كافور فى مصر .

الثانى : طموحه إلى أن يجهر بمعنى كامن فى نفسه ، وهو الكشف عن معدنه ، والإعلان عن أصله العلوى ، وهو أمر كان يلمح به كثيرا . وربما كان يؤمن بأن مطلبه الأول كان طريقه إلى مطلبه الثانى ، وهو أسمى مطالبه .

فهو يشير إلى طلب الملك والخروج على السلطان فى مثل قوله[٣] :

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٨٥ .
(٢) ديوان المتنبى ١/٢٧٨ .
(٣) ديوان المتنبى ١/٢٤٨ .

إن عمرت جعلت الحرب والدة ... والسمهرى أخا والمشرفى أبا
كل أشعث يلقى الموت مبتسما ... حتى كأن له فى قتله أربا
فح يكاد صهيل الخيل يقذفه ... عن سرجه مرحا بالغزو وأو طربا
الموت أعذر لى والصبر أجمل بى ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

فأنت تراه يتوعد فى ثقة تامة ، واعتزاز بذاته ، بيوم تكون الحرب فيه حانية عليه حنو الأم على أولادها ، وتكون عدته من الرماح والسيوف بمثابة الأسرة التى ينعم فى ظلالها ، كما أنه سيستعين برجال شجعان ، لا يخافون الموت ، بل كأن الموت حاجتهم ؛ ذلك لأن الموت أعذر له من سكوته على الحالة التى هو عليها

ونظر المتنبى ، فإنه العرب خاضعون لغير بنى جلدتهم من ملوك الترك والعجم ، وكأنى به يوازن بين نفسه وبينهم حين يشير إلى مؤهلات الملك والسيادة ، ويبين أن ليس لهؤلاء من العروبة والأدب وعراقة النسب ما يؤهلهم لذلك . وإنما هم قوم لا عهد لهم ولا ذمة ، عبيد لبسوا جلود الملوك والأمراء ، ولن تفلح أمة يحكمها العبيد ، ويسوقون شعبها سوق الأغنام . يقول[1] :

إنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لا أذب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
كل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعبد كأنهم غنيم
يستخشن الخزحين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم

ويؤكد هذا المعنى ، بل يرى السكوت عليه ضعفا فى الدين ، فى قوله[2] :

---

١) ديوان المتنبى ١٧٩/٤ .

٢) ديوان المتنبى

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ثم يعلن براءته من مثل هذا المجتمع ، وثورته على واقع أمته ، معبرا عن ذاته المتفردة بسمات خاصة ، حين يرى أنه ليس من نوع هؤلاء المستكينين . وإن كان قدره أن يعيش بينهم ، فقدر الذهب أن يكون فى التراب .

يقول[1] :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرّغام
أرانب غير أنهمو ملوك مفتحة عيونهم نيام

ورجل يعتد بذاته إلى هذا الحد ، يرى أن ثورته النفسية فقط ، نوع من التقصير ، ولذلك يعلن أنه سوف يسلك طريقا عمليا ، يشهر فيه الحسام ، ويخوض غمرات الحمام ؛ لأنه رأى أن لا أحد أقدرَ على التغيير وأجدر بالسيادة منه . يقول[2] .

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى
....
سيصحب النصل منى مثل مضربه وينجلى خبرى عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لا تركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم
....
ردى حياض الردى يا نفس واتركى حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

---

(١) ديوان المتنبى ٤/١٩٠ .
(٢) ديوان المتنبى ٤/١٥٥ .

أيملك الملك - والأسياف ظامئة والطير جائعة - لحم على وضم[1]
من لو رآنى ماء مات من ظمأ ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم وإن تولوا فما أرضى لها بهم

فأى شىء أدل على التعبير عن ذات المتنبى من أن يقف من مجتمعه موقف الناقد الثائر على الزمان ، والحكام والمحكومين ، الذى يوازن بين أهل زمانه من حاكمين (ملوك عجم / لا أدب عندهم / لا حسب / لا عهود / لا ذمم / عبيد / أرانب / نيام / لحم على وضم) ومحكومين (غنم / ضحكت من جهلهم الأمم / ناس صغار / جثث ضخام) وبين نفسه (وما أنا منهم / معدن الذهب الرغام / لا يتعلل بالآمال / لا يقنع بالإقلال / شجاع : يصحب النصل منه مثل حده - يقتحم الحرب - يترك الخيل ساهمة - ردى حياض الردى - أذرك على الأرماح سائلة / ابن أم المجد والكرم . . . الخ ؛ فيرى أهل زمانه ، وملوك عصره من العرب والعجم دونه فى كل شىء . ومن ثم يعزم على التغيير ، وإحلال نفسه المحل اللائق به ، بحد السيف . وربما أشار المتنبى فى البيت الأخير إلى أنه يريد من السيادة والملك والتغيير غرضا آخر ، أسمى من غرضه الأول ، وهو إعلان نسبه :

فإن أجابوا فما قصدى بها لهم وإن تولوا فما أرضى لها بهم

وتخف حدة الثورة والتطلع للخروج على السلطان فى طلب الملك ، والمتنبى فى رحاب سيف الدولة ؛ إذ حقق له الأخير شيئا من المشاركة الفعلية فى السلطة ، فكان يصحبه معه فى كل غزواته . . . وأشبع فى نفسه ذلك

---

(١) الوضم : خشب يوضع عليه اللحم ليقيه الأرض ، وهو يشير إلى أن هؤلاء الملوك أذلاء لا إرادة لهم ولا نفوذ . لسان العرب : مادة وضم .

الشوق العظيم إلى السلطة والحكم والمجد[١] .

ويحس المتنبى بفتور العلاقة بينه وبين سيف الدولة ؛ فتأبى نفسه المتعالية الإقامة على ضيم ، فيفارقه إلى دمشق ، ويعلم كافور بهذه المفارقة فيراسله بعد تركه لسيف الدولة ، ويعرض عليه ولاية - إغراء للمتنبى بمدحه - فلما وصل الشاعر إلى مصر ومدح كافورا ما طله فى وعده[٢] .

وهنا يستنجز الشاعر كافورا وعده ، بالتلميح مرة ، وبالتصريح أخرى . ومما لمح فيه قوله[٣] :

أرى لى بقرب منك عينا قريرة ... وإن كان قربا بالبعاد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب

.....

وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيات عندها وخطاب

وقوله[٤] :

وجدت أنفع مال كنت أذخره ... ما فى السوابق من جرى وتقريب

.....

تهوى بمجرد ليست مذاهبه ... للبس ثوب ومأكول ومشروب
يرى النجوم بعينى من يحاولها ... كأنها سلب فى عين سلوب

وفى قوله[٥] :

---

(١) د. عبد العزيز الدسوقى ، الثقافة ، العدد السابق ، المقال السابق ، ص ٥٥ .
(٢) د. ماهر حسن فهمى ، القاهرة ، العدد السابق ، المقال السابق ، ص٢٣٠ .
(٣) ديوان المتنبى ٣٢٤/١ .
(٤) ديوان المتنبى ٢٩٧/١ .
(٥) ديوان المتنبى ١٥٩/١ .

فارم بى ما أردت منى فإنى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى من الشعراء[1]

وأنت تجد إحساس المتنبى بذاته يسيطر عليه فى هذه الأبيات ، فهو منجرد (جاد فى الأمور كلها ، لا يرده عن مطلبه شىء) / طموحاته أكبر من الحصول على طعام وشراب / يرى النجوم بعين من يحاول الصعود إليها فى أفلاكها لبعد همته / أسد فى صورة آدمى / همته همة الملوك ، وإن بدا للناس أنه شاعر متكسب بشعره .

ولعل المتنبى يشير إلى أنه يريد الولاية ، لتكون سبيله إلى غرضه السامى ، وهو قضية نسبه التى عاش يحلم بإزالة الركام عنها ، وذلك فى قوله لكافور ، يطلب بره بوعده[2] .

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لأنه نظير فَعال الصادق القول وعده
فكن فى اصطناعى محسنا كمجرب يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله فإما تنفّيه وإما تعده

ويكون الشاعر أكثر صراحة فى طلب الولاية الموعود بها من كافور ، بعد أن طال فيه مديحه الذى استقدمه كافور من أجل ، وبعد أن طال مطال كافور إياه فى وعده ، وذلك فى نبرة من اللوم والعتاب الممتزج بالمديح وذلك فى قوله[3] :

---

(١) القصيدة من الخفيف . عروضها صحيحة ، وضربها محذوف : فاعلاتن تصير فاعلا ، ثم دخلها التشعيث (حذف أول الوتد المجموع من فاعلاتن) وهو علة غير لازمة ؛ فصارت التفعيلة (فالا) وتحول إلى فعلن بسكون العين .

(٢) ديوان المتنبى ١٢٨/٢ .

(٣) ديوان المتنبى ٣٠٦/١ .

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذحين وتشرب
وهبت على مقدار كفى زماننا ونفسى على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ب - أما مجال طموحه الثانى ، فهو ما كان يتطلع إليه من الجهر بحقيقة نسبه الذى به يعلو شرفا على كل من حوله من الملوك وغيرهم . وربما كانت هذه الحقيقة هى المفتاح الأول فى إحساس المتنبى بذاته إلى الحد الذى جعل بعض الباحثين يرى أنه مصاب « بالعظمة وتضخيم الذات ممثلة فى شخصه وتكوينه »[١] . غير أنه كان يشير إلى ذلك ، ولم يصرح ، متحينا اليوم الذى يعلن فيه ذلك ، كما سبق فى الحديث عن نسبه ، وذلك فى نحو قوله[٢] :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا تساو المحايا عنده والمقاتل

وقوله يشير إلى شرف أجداده ، ويفخر بهم[٣] :

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى إلى جد همام

كما يشير إلى انتسابه إلى جدود بواسل وإلى أن قضية نسبه هى القضية التى تؤرقه ، وإلى ما جرت عليه من الويلات والمتاعب ، وإلى أنها أعلى ما يطمح إليه فى قوله[٤] :

ومن تكن الأسد الضوارى جدوده يكن ليله صحبا ومطعمه غصبا
ولست أبالى حين إدراكى العلا أكان تراثا ما تناولت أم كسبا

---

(١) د. عبد الله التطاوى ، القصيدة العباسية ، قضايا واتجاهات ، دار غريب للطباعة ١٩٨١م ، ص ١٠٨ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٩١/٣ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٧٥/٤ .
(٤) ديوان المتنبى ١٨٢/١ .

وربما كان يشير إلى ذلك الأمر فى مدحه سيف الدولة ؛ إذ يقول[١] :

أهم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

وفى مدحه ابن طفج ؛ إذ يقول[٢] :

فمالى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم

وفى رثائه جدته ،إذ يقول[٣] :

يقولون لى : ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وهذه القضية كانت مرتبطة فى ذهن المتنبى بمخاطر جسيمة ، غير أنه كان يستخف بها ، حين يرسم لنا شخصيته ، عصية على المخاطر ، أبية على الزمان ، لياليه وأيامه ، فيها جسارة وإقدام يهون عندها الموت فى سبيل هذا الهدف السامى . يقول[٤] :

أبا عبد الإله معاذ إنى خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى وأنا نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصا لخضب شعر مفرقه حسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والمنام

٥ - اعتزاز المتنبى بنفسه

ويدخل فى هذه الاطار إعجاب المتنبى بذاته ، وترفعه عن مدح غير الملوك

---

(١) ديوان المتنبى ٣٩٢/٢ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٣٧/٤ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٣١/٤ .
(٤) ديوان المتنبى ١٦١/٤ .

والأمراء ، وزهوه بنفسه أمامهم ، وتجربته وخبرته بالحياة وصروفها ، وفخره بثقافته وشاعريته وعروبته وشجاعته وغير ذلك .

أ - وتطالعنا فى ديوانه أبيات مما قاله فى صباه يصل فيها اعتداده بنفسه وثقته فيها حد الزهور والغرور . يقول[١] :

أى محل ارتقى أى عظيم أتقى
وكل ما خلق اللـ ـه وما لم يخلق
محتصر فى همتى كشعرة فى مفرقى

فأنت ترى وراء هذه الأبيات شخصا يرى نفسه بلغت الغاية التى ليست بعدها غاية ؛ حتى إنه يستهن بكل عظيم ، ويرى أن كل ما حوله من مغريات الدنيا ، وما تضعف أمامه النفوس مهما كانت كبيرة لا يساوى شعرة فى مفرقه .

وتطالعنا هذه الروح فى قوله[٢] .

إن أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

فأى اعتداد بالذات ، وأى شعور بها بعد أن يرى صاحبها أن لا أحد فوقه . ولعلك تلحظ ذلك فى جعله ذاته محور الحديث : أنا . . أنا ، وفى صوره : أنا ترب الندى / رب القوافى / سمام العدا / غيظ الحسود / أنا غريب .

ونجده يجمع هذه المعانى فى قوله[٣] .

---

(١) ديوان المتنبى ٨١/٣ .

(٢) ديوان المتنبى ٤٧/٢ .

(٣) ديوان المتنبى ٢٨١/٣ .

وأمط عنك تشبيهى بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلى

ب - وثقة المتنبى بنفسه ، وشعوره بذاته منعه أن يمدح غير الملوك والأمراء ؛ فرفض أن يمدح ابن كيغلغ وهو فى طريقه إلى أبى العشائر الحمدانى ، وكان حينئذ بطرابلس ، بل هجاه بقصيدة قال فيها[١] :

أرسلت تسألنى المديح سفاهة صفراء أضيق منك ماذا أزعم ؟[٢]

فكانت هذه القصيدة سببا فى محاولة ابن كيغلغ أن يقتله[٣] . ولم يرض أن يمدح أحدا من ولاة كافور قبل وصوله إليه[٤] ، وكان طاهر بن الحسين العلوى يتشهى أن يمدحه بقصيدة ، وسأله ذلك له الأمير الحسن بن طغج ، فكان يقول : ما قصدت غير الأمير ، ولا أمدح سواه[٥] ، وحين دخل مصر ترفع عن مدح ابن خنزانة (وزير كافور) وهو من هو بين علماء عصره[٦] وحين رجع من مصر إلى بغداد ترفع عن مدح الوزير المهلبى ؛ فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه فلم يجبهم ولم يفكر فيهم[٧] ، وكذلك كان شأنه مع الصاحب بن عباد وغيره .

وأكثر من ذلك كله أن المتنبى أشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه « إذا انشده مديحه لا ينشد إلا وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ؛ فنسب إلى الجنون ، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ،

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٢٥٩ .

(٢) صفراء ، اسم أم المهجو .

(٣) محمود شاكر ، المتنبى ، سبق ٢٩٤ .

(٤) د. عزام ، ذكر أبى الطيب ، سبق ٧٤ .

(٥) السابق ، الصفحة السابقة .

(٦) محمود شاكر ، المتنبى ، ٣٦٦ .

(٧) الثعالبى ، يتيمة الدهر ، سبق ١/١٥٠ .

وتطلع إلى ما يرد منه »[١] .

حـ - والمتنبى غالبا ما يجعل نفسه أحد المحاور التى يلتفت إليها فى مدحه أو هجائه أو رثائه أو غير ذلك . فهو لا ينس فى عتابه سيف الدولة أن يدل بصفاته التى يتحلى بها من الإباء والشرف والبعد عما ينقص من قدره وغير ذلك مما يوجب أن تكون لهذه النفس المعتزة بكرامتها مكانة ومعاملة خاصة[٢] ، وذلك يتضح فى قصيدته التى أولها[٣]

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ومنها يقول

كم تطلبون لنا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيبَ والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وقد غالى المتنبى فى الحديث عن نفسه ومزاياه فى هذه القصيدة ، حتى قال صاحب اليتيمة : « وهى على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها تكاد تدخل فى باب إساءة الأدب بالأدب »[٤] .

ويؤكد المتنبى على أن نفسه المعتزة بكرامتها أبت عليه أن يرضى الذل فى سبيل المال ، أو يقبل ما يمس عرضه وشرفه فى مجلس سيف الدولة ، موضحا أن ذلك ما أوجب فراقه ؛ إذ يرسل إليه من مصر بقصيدة تختلط فيها معانى : العتاب واللوم والحب وعزة النفس التى تأبى الهوان أينما كانت ، وذلك فى قوله[٥] :

---

(١) يوسف البديعى ، الصبح المنبى ٧١ .

(٢) انظر بائيته فى مدح كافرو ، ديوانه ٣١٣/١ .

(٣) ديوان المتنبى ٨٠/٤ .

(٤) الثعالبى ، يتيمة الدهر ، سبق ٢٣٧/١ .

(٥) ديوان المتنبى ٣٦٩/٤ .

رأيتكم لايصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن
فغادر الهجر ما بينى وبينكم يهماه[1] تكذب فيها العين والأذن
ولا أقيم على مال أذل به ولا ألذ بما عرضى به درن
سهرت بعد رحيلى وحشة لكم ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
وإن بليت بود مثل ودكم فاننى بفراق مثله فمن

وقال يمدح كافورا ويشير إلى موقف سيف الدولة منه ، وترفعه عن الإهانة[2]

وما منزل اللذات عندى بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرم
سجية نفس لا تزال مليحة من الضيم ، مرميا بها كل مخرّم[3]

ويقول فى رثاء جدته[4] :

فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

ولم تفارق المتنبى عزة نفسه فى أشد المواقف وأكثرها تأثيرا فى النفس وتوهين القوى . وأى شىء أشد على النفس من أن يودع من يعتد بشرفه وشجاعته وعلمه وأدبه سجنا يعزله عن حركة الحياة ، ويقضى على أمله فيها ؟ غير أن المتنبى كان يستهين بالسجن ؛ لأنه رأى نفسه أكبر من السجن

---

(١) لعل هنا تصحيفا ، لأنها فى لسان العرب ، مادة بهم : بهماء ، وهى الفلاة التى لا يهتدى فيها للطريق .

(٢) ديوان المتنبى ٤/٢٦٣ .

(٣) مليحة : مشفقة ، مخرّم : الجبل : فيه طرق عدة ، الديوان ، لسان العرب ، مادة : ملح ، خرم .

(٤) ديوان المتنبى ٤/٢٣٥ .

وقيوده ؛ إذ يقول[١] :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك لى والجوع يرضى الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناى فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

فالقارىء لهذه الأبيات يرى أنه يستهين بسجنه وقيده ، ويشبه نفسه ضمنيا بالأسد مرة وبالدر مرة أخرى ، كما يرى رجلا وطن نفسه على الشدائد ، بل على الموت ، مما يوحى بعزته وقوته وتأديبه على سجنه .

ولم يضعف من عزم المتنبى ، وهو فى سجنه إلا خطاب أتاه من جدته ، عذلته فيه على ما كان منه فى غربته ، وشكت إليه ألمها[٢] ؛ فلجأ إلى الاحتيال فى الخروج من السجن ؛ اشفاقا عليها ؛ فأرسل إلى الأمير بهذه الأبيات[٣]

بيدى أيها الأمير الأريب لا لشىء إلا لأنى غريب
أو لأم لها إذا ذكرتنى دم قلب بدمع عين بذوب
إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ ت فإنى على يديك أتوب

٦ - التجربة والخبرة

والمتنبى يعتد بتجربته وخبرته فى الحياة ، ومقاومة صروفها وشدائدها ، ومقابلتها بنفس أبيه قوية ، لا تلين لها قناة ، ولا تنال منها الأيام ، ومن ذلك قوله يمدح كافورا[٤] :

---

(١) ديوان المتنبى ٢٣/٣ .
(٢) محمود شاكر ، المتنبى ، ص ٢٣٠ .
(٣) ديوان المتنبى ٢/٣، وانظر داليته فى الغرض ذاته ٦٣/٢ .
(٤) ديوان المتنبى ٣١٣/١ .

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو ان ما فى الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده وناب إذا لم يبق فى الفم ناب
يغير منى الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب
وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيس إن سامحت به وإلافضى أكوارهن عقاب
وأصدى فلا أبدى إلى الماء حاجه وللشمس فوق اليعملات لعاب

فانظر هذه النفس القوية الشابة مدى الأيام ، وإن تغير الجسد وهزل ، وظهرت فى الوجه منه علامات . لها ظفر وناب تدفع بهما عن نفسها ويعود إلى تأكيد المعنى السابق بقوله : ويغير منى الدهر ما شاء غيرها . . . البيت » ، ثم يتحدث عن مكانته وإبائه وقوته على الرحلة وصبره على العطش مهما اشتد حر الشمس ، وكأنه بذلك يشير إلى أنه لا يقيم فى بلد لا يعرف قدره ، ولا يحله مكانته ، وأنه قادر على مفارقته بما طبعت عليه نفسه من بعد الهمة والأنفة والصبر على الرحلة وما يلاقى فيها .

وفى تجربته وخبرته بالحياة ونواز لها ، يقول فى رثاء والدة سيف الدولة[1] :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وقال يمدح على بن احمد الأنطاكى بادئا بالحديث عن شجاعته وخبرته بالحياة ومواجهة شدائدها[2] :

---

(١) ديوان المتنبى ٣/١٤٠ .
(٢) ديوان المتنبى ٢/٢٥٢ .

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا ، وما قولى كذا ومعى الصبر
وأشجع منى كل يوم سلامتى وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول : أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدام الأتى كأن لى سوى مهجتى أو كان لى عندها وتر

وكذا يقول[1] .

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل

ونظرة متأملة فى هذه الأبيات ترى القارىء تلك الذات التى توالت عليها الخطوب ، حتى إنها لم تعد تؤثر فيها حوادث الأيام ونكبات الدهر ، ويتضح ذلك فى قوله : رمانى الدهر بالأرزاء / فؤادى فى غشاء من نبال / تكسرت النصال على النصال / أطاعن . . . الدهر / تمرست بالآفات / أقدمت إقدام الأتى / كثير الرزايا . . قليل / وغير ذلك كثير فى شعره مما يدل على شعور المتنبى بذاته فى خبرته بالحياة وتجاريبها ، حتى إنه لم يعد يتعلم منها شيئا لسعة علمه ؛ فهو القائل[2] :

وما استغربت عينى فراقا رأيته ولا علمتنى غير ما القلب عالمه
فلا يتهمنى الكاشحون فإننى
رعيت الردى حتى حلت لى علاقمه

٧ - شعره وثقافته

وفيما يتصل باعتداد المتنبى بشعره وثقافته ، نجد أنه يكرر ذلك كثيرا فى مواقفه الشعرية ، مؤكدا على قيمة هذا الشعر عند من يقال فيهم . ومن ذلك قوله فى معاتبة سيف الدولة ، مفاخرا بعلمه وأدبه ، معرضا بغيره من

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٢٣٠ .

(٢) ديوان المتنبى ٤/٥٠ .

الشعراء والحاسدين الذين كانوا يتعرضون له فى مجلس سيف الدولة بما يسوءه[١] :

أنا الذى نظر الذى نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا
وجاهل مده فى جهله ضحكى حتى أتته يد فراسه وفم
إذا نظرت نيوب الليث بارزه فلا تظن أن الليث يبتسم

فانظر هذا الأدب الذى أعاد للأعمى بصره حتى رآه / وللأصم سمعه ، حتى سمعه ، وانظر كيف يتحدى الشاعر الخلق جميعا ، فضلا عن شعراء عصره وعلمائه ؛ فيضع نفسه وشعره فى ناحية ، والخلق كلهم فى ناحية أخرى ، ثم هو يسم المتطاولين عليه فى مجلس الأمير بالجهل ، وعدم الفطنة ، كما يشير إلى تشبيه نفسه بالأسد فى ثورته وحدته فى بيت من الحكمة السائرة .

وتسيطر على المتنبى ثقته فى نفسه ، وعلو منزلته ، وقيمة شعره فى كثير من قصائده ، واضعا نصب عينيه أعداءه وحساده من الشعراء النافسين عليه مكانته الشعرية والأدبية ، مفضلا نفسه عليهم

يقول فى إحدى مدائحه سيف الدولة[٢]

خليلى إنى لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟

وفى أخرى يقول[٣]

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٨٣ .
(٢) ديوان المتنبى ١/٣٩٤ .
(٣) ديوان المتنبى ٢/٣ .

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغردا
أجزنى إذا أنشدت شعرا فإنما بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فإننى أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

وفى عتابه سيف الدولة فى القصيدة التى أشرت إليها ، يعود إلى هذا المعنى الذى يلح على خاطره ؛ فيقول[1]

بأى لفظ الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقة قد ضمن الدر إلا أنه كلم

وأنشد القاضى احمد بن عبد الله الأنطاكى قصيدته :

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

قال فيها[2] .

لا تَجْسُر الفصحاء تنشد ههنا بيتا ولكنى الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل
من لى بفهم أهيل عصر يدعى أن يحسُب الهندى فيهم باقل

وفى مديحه لأبى العشائر بقصيدته التى أولها

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى

يمدح نفسه ، ويفاخر بشعره ، ويعرض بغيره ، فيقول[3] :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ ، كلانا رب المعانى الدقاق
لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجياد غير النهاق

ونراه ينظر إلى حساده وشانئيه نظرة من عل ، ويسمهم بأن الشعر عندهم

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٩٠ .
(٢) ديوان المتنبى ٣/٣٧٦ .
(٣) ديوان المتنبى ٣/١١٠ .

صنعة وتكلف ، وأنهم لا يملكون الطبع والأداة التى تجعلهم فى منزلته وأنه هذا الطبع الجافى يجعلهم بعيدين عن تذوق الشعر وإدراك قيمته ، ولو كان عندهم شيء من ذلك لاستصغروا أنفسهم بجانبه ، وحقروا شعرهم إلى شعره . يقول[1] :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرابه الماء الزلالا

ويحقر من شأنهم ، ويسخر منهم ، ولا يعبأ بالرد عليهم ترفعا وتكبرا فى مثل قوله[2] :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول
لسانى بنطقى صامت عنه عادل وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه من طبى فيهمو غير أننى بغيض إلى الجاهل المتعاقل

٨ - صفات تتصل بشعور المتنبى بنفسه

وهناك صفات تخلق بها المتنبى وتشير إلى تعاليه ، واعتزازه بنفسه وثقته فى ذاته ، منها :

أ - اعتزازه بعروبته وشجاعته . وقد أشرت إلى اعتزازه بعروبته ، فيما سبق ، ويفهم ذلك من الحديث عن ثورته على ملوك عصره من العرب والعجم ، ومن ذلك قوله فيما أشرت إليه :

إنما الناس بالملوك وما تفـ ـلح عربٌ ملوكها عجم

---

(١) ديوان المتنبى ٣٤٤/٣ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٣٧/٣ .

أما فيما يتصل بشجاعته وتطلعه إلى المعارك وخوض غمرات الحروب[١] ، فقد أشرت إلى ذلك أيضا عند الحديث عن نسبه وطموحاته وتطلعه إلى الملك والرئاسة ، أو انتظاره ليوم يعلن فيه حقيقة نسبه .

ومن ذلك قوله[٢] :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقوله[٣] :

وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب
نصرفها للطعن فوق حوادر قد انقصفت فيهن منه كعاب
أعز مكان فى الدنى سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب

فالشاعر لا تختلب النساء لبه ، ولا يستهوين بلحاظهن قلبه ، وإنما هو عزوف النفس عنهن ، مشغول بمعالى الأمور . وكذلك لا لذة له فى معاطاه الكئوس ؛ إذ ترك ذلك كله من أجل شهوة واحدة استولت على مشاعره ، وهو اللعب بأطراف الرماح ، وتصريفها فى قلوب الأعداء ؛ حتى تتكسر كعابها بل أفضل مكان عنده ، هو ظهور الخيل ، يخوض بها المعارك ، كما أن خير من يجلس إليه الإنسان ، ويستمتع به هو الكتاب .

وحين وصل إلى الكوفة بعد خروجه من مصر بالرغم من محاولة كافور منعه ، يقول[٤] :

---

(١) انظر فى شجاعته د. عزام ، ذكرى أبى الطيب ، سبق ص٩٥ ، والثعالبى ، يتيمة الدهر ، سبق ١٤٧/١ .
(٢) ديوان المتنبى ٨٥/٤ .
(٣) ديوان المتنبى ٣١٣/١ .
(٤) ديوان المتنبى ١٦٥/١ .

فلما أنخنا ركزنا الرما ح فوق مكارمنا والعلا
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدا
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيت ، وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفا أبى
ولابد للقلب من آلة ورأى يصدع صم الصفا[1]
ومن يك قلب كقلبى له يشق إلى العز قلب التوى

فأى شيء أدل على الشجاعة والثقة بالنفس والتحدى من أن يركز الإنسان فى الأرض رمحه رمزا لخروجه من معركته منتصرا ، ومن أن يقبل سيفه الذى رواه بدماء أعدائه ، يريد أن يعلم الناس جميعا ، فى مصر والعراق وجميع العواصم قوته وبأسه ، وأنه وفى بما قال من أنه سيترك مصر برغم كافور ، وأبى الظلم ، وتكبر على من تكبر عليه . وهذا من الحكمة وسداد الرأى ، ثم يشير إلى ثبات قلبه وشجاعته فى خوض الموت طلبا للعزة .

ويلحظ القارىء اعتداد المتنبى بذاته فى صياغته ، إذ عبر بـ(نا) الدالة على الجمع : أنخنا / ركزنا / مكارمنا / بتنا / أسيافنا / . ولعل فى ذلك إشارة إلى اعتزازه بمن ينتسب إليهم ، وفى الألفاظ التى توحى بالقوة ، مثل قوله : أنى الفتى / أنى أبيت ، مع ما فيه من شمم وإباء / أنى عتوت / يشق قلب التوى (أى الهلال)

ب - ومنها كرمه : فبالرغم مما ورد من روايات تدل على حرص المتنبى وشحه[2] ، فإنه يدل بكرمه ، مما يدل على أن حرصه على المال لا ينافى

---

(١) الصفا ، بفتح الصاد ، جمع صفاة : العريض الأملس من الحجارة . لسان العرب ، مادة : صفا .

(٢) انظر د. عزام ، ذكرى أبى الطيب ، ٢٠٧ .

الكرم ، وإنما هو يرجع إلى الحكمة فى تصريف الأموال وإنفاقها . وكيف يكون بخيلا من يقول[١] :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود

ومن يقول[٢] :

ونفس لا تجيب إلى خسيس وعين لا تدار على نظير
وكف لا تنازع من أتانى ينازعنى سوى شرفى وخيرى[٣]

فهو أخو الجود والكرم ، ولدا معا ، وعاشا معافى صداقة دائمة ، وهو لا يمنع من أتاه شيئا ، إلا أن يكون هذا الشىء طعنا فى شرفه وكرمه ، وهذا يتفق مع ما عرف عن المتنبى من صدق .

جـ - ومنها : ما عرف عنه من ترفعه عن شرب الخمر ؛ فما كان يشربها إلا مجاملة أو حرجا من أمير ، بل قد لا يشربها إلا إذا أقسم عليه بعضهم بشربها ؛ إذ يرى أنها تنافى الرجولة وتأكيد الذات واليقظة الدائمة التى تتطلبها الحروب وسياسة الملك . وقد سبق لنا قوله[٤] :

لأحبتى أن يملأوا بالصافيات الأكوبا
وعليهمُ أن يبذلوا وعلى أن لا أشربا
حتى تكون الباترا ت المسمعات فاطربا

وسأله صديق يعرف بأبى ضبيس أن يشرب معه ؛ فامتنع وقال ارتجالا[٥] :

---

(١) ديوان المتنبى ٤٨/٢ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٤٧/٢ .
(٣) الخير ، بكسر الخاء : الكرم ، لسان العرب ، مادة : خير .
(٤) ديوان المتنبى ٢٣٤/١ .
(٥) ديوان المتنبى ٣٠٠/٢ .

ألـذ مـن المدام الخنـدريس[١] وأحلى مـن معاطاه الكئـوس
معاطـاه الصفائـح والعـوالى وإقحامـى خميسـا فى خميس
فموتى فى الوغـى أربى لأنى رأيت العيش فى أرب النفوس
ولـو سقّـيتها بيـدى نـديم أسر بـه لكـان أبـا ضبـيس

فهو يفضل السيوف وخوض المعارك على شرب الخمر ، كما يفضل أن يموت فى ميدان القتال الذى يخشاه الناس حبا فى الحياة ورغبة فى العيش .

وعرض عليه إبراهيم التنوخى كأسا فيها شراب ، فقال ارتجالا[٢] :

إذا ما الكأس أرعشت اليدين صحوت فلم تحل بينى وبينى
هجرت الخمر كالذهب المصفى فخمرى ماء مزن مـن لجين

فكما ترى ، لا يريد الشاعر أن يغيب الوجود عن وعيه إحساسا بذاته ، ولذلك فهو يمتنع عنها حتى لا تحول بينه وبين الإحساس بتلك الذات . وانظر قوله (لم تحل بينى وبينى) .

وورد فى شعره أنه شرب الخمر ، ولكن دون رغبته ؛ فقد شربها فى مجلس بدر بن عمار[٣] ، وفى مجلس ابن طغج ، غير أن شربها كان مجاملة منه . فحين أقسم عليه الأمير (ابن طغج) أن يشرب ، قال ارتجالا[٤]

حييت من قسم وأفدى المقسما أمسى الأنام له مجلا معظما
وإذا طلبت رضا الأمير بشربها وأخذتها فلقد تركت الأحرما

وأقسم عليه مرة أخرى بحقه ، فشرب ، وقال[٥] :

---

(١) الخندريس ، الخمر القديمة ، لسان العرب ، مادة خندرس .
(٢) ديوان المتنبى ٤/٣٢٥ .
(٣) انظر ديوان المتنبى ٢/٢٤١ ، ٣/١٢١ .
(٤) ديوان المتنبى ٤/٢٤٤ .
(٥) ديوان المتنبى ٣/٩١ .

سقانى الخمر قولك لى بحقى ... وود لم تشبـــــه لى بمذق
يمينا لو حلفت وأنت نـاء ... على قتلى بها لضربت عنقـى

- ومنها : وفاؤه لأصدقائه ، وصدقه مع نفسه ومع الناس . ومن ذلك وفاؤه لأبى شجاع ، فاتك ؛ إذ توفى الأخير ٣٥٠هـ ؛ فرثاه المتنبى بعد رحيله عن مصر بقصيدة تفيض بمشاعر الوفاء ، مع ما تفيض به من مشاعر الاعتداد بالذات . يقول[١] :

الحزن يقلق والتجمل يـردع ... والدمع بينهما عصى طيـع
يتنازعـان دموع عين مسهـد ... هذا يجىء بها وهـذا يرجـع
النـوم بعـد أبى شجـاع نافـر ... والليل معىْ ، والكواكب ظلع[٢]
إنى لأجبن من فراق أحبتـى ... وتحس نفسى بالحمام فأشجع
ويزيدنى غضب الأعادى قسوة ... ويلم بى عتب الصديق فأجزع

هـ - ومنها : حبه الصدق فيمن يعرفه ، وفى عاداته هو وأقواله . يقول من قصيدة يمدح بها كافورًا[٣] :

ومن هو كل من ليست مُوهة ... تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصديق فى قولى وعادته ... رغبت عن شعَر فى الرأس مكذوب

ومنها : أنه يعيب التصنع والتكلف وذلك فى نحو قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطريه ... وفى البداوة حسن غير مجلوب

* * *

---

(١) ديوان المتنبى ١٢/٣ .

(٢) الظلع : العرج ، لسان العرب ، مادة : ظلع ، والمراد أن ليل الشاعر طويل ، لا تتحول فيه النجوم عن أماكنها إلا ببطء شديد .

(٣) ديوان المتنبى ٢٩٢/١ .

٩ - المتنبى : الوجه الآخر

ويدخل تحت هذا المحور الذى اهتم فيه الشاعر بالحديث عن نفسه ، شكواه من الدهر والناس ، والحساد ، وقلقه وما استتبعه من الرحلة والتنقل من بلد إلى آخر ، مع اصطباغ ذلك كله بصبغة حزينة ، ورؤية قاتمة أو متشائمة .

أ - كان المتنبى - كما عرفنا - ذا نفس طامحة ثائرة ، لم ترض ما فرضته الظروف عليها ، من فقر وظلم ، ولم تنسجم مع النظام السياسى آنذاك ، هذا إلى اعتزازه بذاته فى علمه وأدبه وشجاعته وغير ذلك من صفاته ، غير أننا نلحظ أن هناك بعدا آخر من أبعاد تلك الذات الثائرة ، وهو الجانب الذى كان المتنبى يجتر فيه آلامه من الدهر والناس والحساد وحظه العاثر . . . الخ . وربما كان هذا الجانب أحد مفاتيح شخصية الشاعر ؛ إذ تكاد لا تجد قصيدة له تخلو من أحد هذه المعانى ، على حد قوله[1] :

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة   فلا أشتكى فيها ولا أتعتب

فهو يتمنى - كما يرى القارىء - أن تكون له قصيدة خالية من الشكوى والعتاب . ومعنى ذلك أن هناك خطا فى شعره ، ربما كان موازيا لثورته وطموحه واعتزازه بذاته ، وهو الشكوى والألم . وعلى كل ، فإن هذا الجانب كان محورا لتعبير المتنبى عن ذاته فى عدم انسجامه مع الواقع . ومن ذلك قوله يمدح المغيث بن بشر العجلى[2]

فسرت نحوك لا ألوى على أحد   أحث راحلتى الفقر والأدبا

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها   لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

---

(١) ديوان المتنبى ٣٠٤/١ .

(٢) ديوان المتنبى ٢٣٧/١ .

فأنت ترى هنا رجلا تشغله ذاته / لا ألوى على أحد / ليكشف عنها ما عضها من الفقر ، بل الأكثر من ذلك ، أن الدهر أترع له كأس الحرمان / أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها ، ولعل فى تعبيره / بلوى / ما يوحى بالنفور والكراهية ، وفى / شرقت / ما يوحى بما لقيه من تعب . وأنت ترى أيضا رجلا يعتد بذاته فى اعتداده بأدبه / أحث . . . الأدباء .

وقال يمدح على بن منصور ، بعد المقدمة الغزلية ، وقبل المديح[١]

أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت على مصائبا
وحبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشى راكبا[٢]

فالشاعر حظى من دنياه بالحرمان ، وحين التمس عطاءها أمطرته المصائب ، ومما زاد فى شقائه وبؤسه أنه لم يجد ما يركبه سوى خفه الأسود . وفى / أظمتنى الدنيا ، ما يوحى بالحرمان واللهفة . وتزيد الحسرة حين تأتى المصيبة مما يؤمل منه الخير / مطرت على مصائب / ، وكأنه ينظر فى البيت : أظمتنى الدنيا . الخ إلى قول كثير عزة[٣] :

وإنى وتهيامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكا لمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وقال يشكو دهره الذى يعاجله بنكباته ، وغربته النفسية بين أناسه ، ويرثى لحاله من ضيق صدره ورزقه ونحس طالعه ، مع فضله وهمته[٤] :

ما مقامى بأرض نخله إلا كمقام المسيح بين اليهود

---

(١) ديوان المتنبى ١/٢٥٠ .

(٢) خوص ، جمع خوصاء : الناقة الغائرة العينين ، دارس : جلد أسود ، لسان العرب مادة خوص ودرش .

(٣) ديوان الشعراء لابن قتيبة ، ط٣ دار التراث العربى ١٩٧٧م ١/٥٢٣ .

(٤) ديوان المتنبى ٢/٤٤ .

....

أين فضلى إذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدرى ، وطال فى طلب الرزق
قيامى وقل عنه قعودى
أبدا أقطع البلاد وبجمى فى نحوس وهمتى فى سعود

ويشكو المتنبى دهره أيضا ، وقلة النصراء وكثرة الحساد ، وينكر كل ما حوله ؛ ، جاعلا ذاته محور حديثه فى قوله[١] :

وقلة ناصر جوزيت عنى بشر منك يا شر الدهور
عدوى كل شىء حتى لخلت الأكمْ موغرة الصدور
فلو أنى حسدت على نفيس لجدت به لذى الجد العثور
ولكنى حسدت على حياتى وما خير الحياة بلا سرور

وحين يشتد ضيق المتنبى ، نجد له هذه النفثة التى يدعو فيها على الدنيا جميعا وذلك فى قوله[٢]

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

والمتنبى طبع أو نشىء على كثير من الخلال الحميدة التى تناسب رجولته وطموحه وكبرياءه ، منها ، الصدق والوفاء وكراهة التصنع ، كما أشرت ، غير أنه حين خالط الناس وخبرهم اطلع منهم على ما لم يتفق وطبعه ، من هجر الصديق ، وغدر الخليل والمخادعة فى الصداقات ؛ فساءت فيهم ظنونه ، وأخذ يجاريهم ، غير مقتنع بسلوكياتهم ، مترفعا بأخلاقه عن أخلاقهم . ومن ذلك قوله يذم أخلاقهم[٣] :

---

(١) ديوان المتنبى ٢٤٧/٢ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٠١/١ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٧٤/٤ .

فلما صاروا الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام
يحب العاقلون على التصافى وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لأبى وأمى إذا ما لم أجده من الكرام
أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الأولاد أخلاق اللئام

ب - ورجل كالمتنبى ، له نبوغ فى العلم والأدب ، متوقد الذهن ، صافى القريحة ، متفوق على أقرانه ، ينادم الملوك ويسامرهم ويمتعهم بحلو حديثه ؛ إذ « لم يكن أحد غيره يجذب الأصحاب بلفظه »[٤] ؛ حتى حظى بالقرب منهم ، ورجل كالمتنبى يعتز بكرامته ويعلى ذاته أمام من يمدحهم ، بل يجعلها فى مكانه ممدوحه ، لابد أن يثير من حوله نفوسا حاقدة ، تنفس عليه مكانته وحظوته . وهذا ما كان من شأن أبى الطيب الذى تبارى فى الكيد له كثير من الأعداء والحساد ، سواء من العلويين الذين ينسب إليهم فيما رجحناه سابقا ، والذين ظلموه ومنعوه شرف هذه النسبة ؛ لما كانوا يخافونه من ظهوره أو سيادته وإخمال ذكرهم بما امتاز به من قدرات ومواهب إذا ضمت لشرف النسب لكان فى ذلك القضاء على أطماعهم فى الخلافة ، أم من الشعراء والعلماء الذين كانوا فى مجلس سيف الدولة ، مثل أبى فراس وابن خالويه ، أو الذين كانوا فى مصر ، مثل ابن خنزابة وزير كافور ، أو الذين كانوا فى العراق ، مثل الوزير المهلبى . . . الخ .

وعاش المتنبى تطارده المكايد ، غير أنه كان يرى نفسه فوق كيد الكائدين ، ولم ير فيهم من يستحق أن يرد عليه أو يهاجيه ، إذ يقول[١] :

أبدو فيسجد بالسوء يذكرنى ولا أعاتبه صفحا وإهوانا

---

(١) بلاشير ، أبو الطيب المتنبى ، سبق ٨٤ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٥١/٤ .

ولكن ذلك الحقد كان يؤذى نفسه ؛ ذلك لأنه طبع على ما يوجب الحب ، لا على ما يوجب العداوة . أما وقد حدث غير ذلك ، فليس إلا لأنه صدى لنفوس مريضة بداء عضال ، لا يشفيه الإحسان ، ولا تقتله المودة إلى أن يودى بصاحبه

وسيطر على المتنبى شعوره بذاته أمام حاسديه ، ومن ثم يتعالى عليهم ، ويعرض عن غمزاتهم وأحقادهم فى كثير من أشعاره ، ومن ذلك قوله فى مدح سيف الدولة[1] :

أنا السابق الهادى فيما أقول ... إذا القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريبنى ... أصول ولا للقائليه أصول
أعادى على ما يوجب الحب للفتى ... وَأَهْدَأُ والأفكار فيه تجول
سوى وجع الحساد داو فإنه ... إذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد فى مودة ... وإن كنت تبديها له وتنيل
وإنا لنلقى الحادثات بأنفس ... كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

فأنت تجد هنا رجلا يعتد بذاته ويعلو بنفسه فوق النافسين عليه مكانته ، الذين لا يفترون يتلمسون ما يشنعون به عليه . ولذلك تراه يوازن بين نفسه وبينهم ، معليا من شأن نفسه .

وليتأمل القارىء معى هذه الصياغة : أنا السابق الهادى / يريبنى / أعادى / أهدأ / فى / وإنا / علينا / جسومنا . ولعل فى التعبير بـ(نا) ما يشير إلى اعتزازه بمن ينتسب إليهم . أما حساده ، فـ / ما لكلامهم أصول /

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٢١٧ .

ولا للقائليه أصول ، أى لا نسب لهم يعرف به أصولهم / الأفكار فى تجول . ولعل فى هذا التعبير ما يوحى بكثرة حساده ، وحرصهم على التماس أقل ما يعاب به ، ولا غرو ، فهم مرضى بداء الحسد الذى يقتل أصحابه ، سوى وجع الحساد داو . . البيت . ومن هنا كان قوله[١] :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم

وفى مديحه على بن محمد بن سيار ، بعد مقدمة ، تحدث فيها عن أحلامه بالمعارك والقتال ودماء الأعداء ، مشيرا إلى هؤلاء الحساد ، وما يجره عليه حسدهم ونظراتهم الحاقدة ، من تنغيص نهاره ، فضلا عن ليله ، متوعدا إياهم بالقتل ، وإلا فهو يفضل الموت على هذه الحياة التى يشاركونه إياها . يقول[٢] :

وما ليل بأطول من نهار يظل بلحظ حسادى مشوبا
وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معى فيها نصيبا

والمتنبى الذى قال : إنه لا يرد على حاسديه (صفحا وإهوانا) قد تضيق نفسه ؛ فتخرج منه العبارة حاملة ثورة نفسية عارمة ، صابة جام غضبه عليهم ، وإن كان يرى نفسه فوق ما يلصقونه به ، وفوق أن يهجوهم . ومن ذلك قوله يمدح الحسين بن اسحاق التنوخى ، وكان قوم قد هجوا ابن اسحاق ، و عزوا الهجاء إلى أبى الطيب ؛ فكتب إليه ، عاتبا عليه تصديقه ما دس عليه[٣] :

أتنكر يا ابن اسحاق إخائى وتحسب ماء غيرى من إنائى
....

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٨٠ .
(٢) ديوان المتنبى ١/٢٦٨ .
(٣) ديوان المتنبى ١/١٣٩ .

تطيع الحاسدين وأنت مرء جعلت فداءه وهو فدائى
وهاجى نفسه من لم يميز كلامى من كلامهم الهراء
وإن من العجائب أن ترانى فتعدل بى أقل من الهباء
وتنكر موتهم وأنا سهيل طلعت بموت أولاد الزناء

ولا يخفى على قارىء هذه الأبيات أن قائلها يعجب بنفسه ، ويدل بها ؛ فعبر عنها أصدق تعبير ، واعتد بها أيما اعتداد ، فهو يعجب من ابن اسحاق ؛ إذ ساوى بينه فى منزلته من الأدب والشرف وبعد الهمة وغير ذلك ، وبين من هم أقل من الهباء ، وفى هذا التعبير ما فيه من احتقار شأنهم ، كما يعجب أن ينكر موت حساد المتنبى (أولاد الزناء) ، والمتنبى سهيل الذى طلع بموتهم ، وفى التعبير ب (أولاد الزناء) فحش ظاهر ، يدل على ضيق نفس الشاعر بهم

حـ - والمتنبى ، الشاعر ، ذو النفس الأبية ، الطامحة ، الشجاعة ، المعتمدة بقدراتها ومواهبها ، كان قلقا ، لا يستقر به المقام فى مكان إلا استنفره إلى مكان آخر ، ولم يطب له المقام إلا مع سيف الدولة الذى قضى معه ما يقرب من تسع سنوات ؛ كانت أجمل مراحل حياته وأهدأها ، وما إن أحس ببعض المضايقات فى مجلسه ، وبفتور العلاقة بينهما حتى ضاق به أيضا هذا المقام الأثير لديه ؛ فخرج مغاضبا سيف الدولة ، ولم يعد إليه ، وإن ظل على حبه له ؛ فهو القائل[1] :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يممت خير ميمم

ومن هنا نجد المتنبى يتحدث فى شعره عن رحلته ، وما يلقى فيها من

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٢٥٩ .

مشاق ، معتدا بذاته ، مفاخرا بقدرته وشجاعته وصبره عليها . ومن ذلك قوله[١] :

أو انا فى بيوت البدو رحلى ... وآونة على قتد البعير[٢]
أعرض للرماح الصم نحرى ... وأنصب حروجهى للهجير
وأسرى فى ظلام وحدى ... كأنى منه فى قمر منير

وكذا قوله[٣]

ومهمه جبته على قدمى ... تعجز عنه العرامس الذلل
بصارمى مرتد ، بمخبرتى ... مجتزىء ، بالظلام معتمل
إذا صديق نكرت جانبه ... لم تعينى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب ... وفى بلاد من أختها بدل

وحين يتحدث عن الحمّى التى كانت تغشاه بمصر ، يعرض بالرحيل عنها ، مشيرا إلى درايته بالصحراء ومعرفة مسالكها ودروبها ، وقدرته على مواجهة شدائدها ، واعتماده على ذاته فقط فى رحلته .

يقول[٤] :

ذرانى والغلاة بلا دليل ... ووجهى والهجير بلا لثام
فإنى أستريح بذى وهذا ... وأتعب بالإناخة والمقام
عيون رواحلى إن حرت عينى ... وكل بغام رازحة بغامى[٥]

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٢٤٥ .

(٢) آونة ، جمع أوان - قتد البعير : خشب الرحل ، لسانالعرب مادة قتد .

(٣) ديوان المتنبى ٣/٣٢٦ .

(٤) ديوان المتنبى ٤/٢٧٢ .

(٥) الرازحة ، الناقة التى سقطت هزالا ، البغام : الصوت ، لا تفصح به عن معنى ، لسان العرب مادة رزح ، بغم .

فقد أرد المياه بغير هاد سوى عدى لها برق الغمام
يذم لهجتى ربى وسيفى إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولا أمسى لأهل البخل ضيفا وليس قرى سوى مخ النعام

وعند توديعه ابن العميد ٣٥٤هـ قاصدا عضد الدولة يقول[١] :

فإما ترينى لا أقيم ببلدة فآفة غمدى فى دلوقى وفى حدى
يَحُل القنا يوم الطعان بعقوتى فأحرمه عرضى وأطعمه جلدى

وفى فراق سيف الدولة قال[٢]

وما منزل اللذات عندى بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرم

وقال[٣] :

غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيس إن سامحت به وإلا ففى أكوارهن عقاب

ونظرة متأملة فى هذه الأبيات التى تحدث فيها الشاعر عن رحلته ، من بدو إلى حضر ، ومن بلد إلى بلد ، وعما يتحمل من مشاق ، وما يلقى من متاعب وأهوال ، ترينا الأسباب التى تضطره إلى الرحلة ، اعتدادا بذاته ، وصونا لكرامته ، وتحقيقا لطموحاته ، منها : أنه قلق لا يطمئن به مقام / فآفة غمدى فى دلوقى وفى حدى / ، وأن تمس كرامته / إذا لم أبجل عنده وأكرم / ، وتغير وجه الصديق / إذا صديق نكرت جانبه / ، وبخل من يعيش بينهم / وليس قرى سوى مخ النعام / ، والحفاظ على عرضه / فأحرمه عرضى / ومنها طموحه إلى طلب المعالى ، كقوله[٤] :

---

(١) ديوان المتنبى ١٦٣/٢ .
(٢) ديوان المتنبى ٢٥٩/٤ .
(٣) ديوان المتنبى ٣١٣/١ .
(٤) ديوان المتنبى ١٣٩/٢ .

لولا العلا لم تجب بى ما أجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود[1]

كما ترينا كثرة ترحاله / أو انا فى بيوت البدو . . وآونه على قتد البعير / لا أقيم ببلدة / غنى عن الأوطان .

وترينا جلده وصبره وخبرته بالصحراء ودروبها ، وثقته بذاته ، كما فى / على قتد البعير / أعرض الرماح الصم نحرى / أنصب حُرَّ وَجْهِى للهجير / أسرى فى ظلام الليل وحدى / كأنى منه فى قمر منير / جبته على قدمى / غنى عن ذملان العيس / بمخبرتى محترىء / بالظلام معتمل / ووجهى والهجير بلا لثام / الفلاة بلا دليل / عيون رواحلى . . عينى / كل بغام رازحة بغامى / أرد المياه بغير هاد / يذم لمهجتى ربى وسيفى .

وهكذا يتضح أن كثرة التنقل والارتحال فى حياة المتنبى كانت من الجوانب التى عبر فيها عن نفسه ، وظهر فيها اعتزازه بها ، طامحة إلى العلا والجاه ، أو رافضة لواقع لا يتفق معها .

وبعد ، فإن شخصية المتنبى ، واعتداده بذاته ، وشعوره بنفسه ، كان أحد الملامح البارزة فى شعره ، مما لا يخفى على قارىء . وإننى قد حاولت فى هذه الدراسة – باذلا كل جهدى – أن أضع يد القارىء على الجوانب أو المحاور التى اتضحت فيها هذه السمة اتضاحا بارزا . فإن كنت قد وفقت ، فلله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى ، فحسب أنى بلغت بنفسى وسعها .

والله ولى التوفيق

* * *

---

(١) الوجفاء : الناقة الصعبة ، والجرداء ، الناقة الضامرة ، القصيرة الشعر ، والقيدود ، الناقة الطويلة (هامش الديوان) .

مراجع البحث

أولا : المؤلفات :

١ - إبراهيم عبد القادر المازنى .
حصاد الهشيم ط الشعب
٢ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله) .
الشعر والشعراء ، ط٣ دار التراث العربى ١٩٧٧م .
٣ - ابن منظور (محمد بن المكرم) .
لسان العرب ، ط دار المعارف ١٩٧٧م .
٤ - أبو الطيب (أحمد بن الحسين) .
ديوان المتنبى ، بشرح البرقوقى بيروت ١٩٨٠م .
٥ - بلا شير .
أبو الطيب المتنبى ، ترجمة د . إبراهيم الكيلانى ط٢ دار الفكر العربى ، دمشق ١٩٨٥م .
٦ - الثعالبى .
يتميه الدهر ، تح مفيد محمد قميحة ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م .
٧ - الجرجانى (القاضى على بن عبد العزيز) .
الوساطة ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ، ط عيسى الحلبى .
٨ - د . طه حسين .
مع المتنبى ط١٣ ، دار المعارف ١٩٨٦م

٩ - الأستاذ عباس حسن .
المتنبى وشوقى ، ط٣ دار المعارف ١٩٧٦م .
١٠ - د . عبد الله التطاوى .
القصيدة العباسية ، قضايا واتجاهات ، دار غريب للطباعة ١٩٨١م .
١١ -د . عبد الوهاب عزام .
ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، ط٣ دار المعارف ١٩٦٨م .
١٢ - الأستاذ محمود شاكر .
المتنبى ، مطبعة المدنى ١٩٨٧م .
١٣ - النيسابورى .
أبو الطيب ، ماله وما عليه ، تح محمد محيى الدين مطبعة حجازى .
١٤ - يوسف البديعى .
الصبح المتنبى ، تح مصطفى السقا وآخرين ، ط٢ دار المعارف ١٩٧٧م .

ثانيا : الدوريات :

١ - الثقافة : ع أبريل ١٩٧٦م ، ومايو ١٩٧٧م .
٢ - حوليه دار العلوم : السنة الثانية ١٩٣٦م .
٣ - الفيصل : ع فبراير ١٩٩٣م .
٤ - القاهرة : ع سبتمبر ١٩٩٣م .
٥ - المجلة العربية : ع نوفمبر ١٩٩٢م .

* * *